مقدمة

ظهر الميل إلى اكتشاف الغيب المحجّب ، منذ وُجد على ظهر الأرض إنسان ، لأن مَرَدّ هـذا الميل إلى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول ـ وهى معرفة تراد لذاتها أصلا ، وإن جرت العادة باتخاذها أداةً لخدمة غايات ـ ومن هنا كان التنبؤ بالغيب ، مثار افتتان الشعوب فى كل زمان ومكان[1] . وليس ينفى هـذا ما يلحظه البعض من أثر انتشار « العلم » فى إضعاف هذا الميل عند الناس ، إذ ليس العلم فى كل صُوَره ، إلا محاولة ترمى إلى اكتشاف مجهول ـ واختلاف المناهج وتباين المقاصد ، لا يغير من هذه الحقيقة كثيرا . . !

وقد أدى تشارك البشر فى فطرية النزوع نحو إدراك الغيب ، إلى تشابه الكثير

---

(١) حسب القارئ فى بيان هذا الميل الفطرى عند الناس ، أن يطلع على أبحاث :
Bouché — Leclercq, L'Histoire de la Divination dans l'antiquité
بأجزائه الأربعة ـ ثم بحثه عن التنبؤ الإيطالى (باريس ١٨٨٢) وبحثه عن التنجيم الإغريقى (باريس ١٨٩٩) وأن يقرأ « العلم بالغيب » Divination لفيلسوف الرومان وخطيبهم شيشرون Cicero

وقد نقلناه إلى العربية وألحقناه برسالتنا للدكتوراه «الأحلام» ، وفى نيتنا أن ننشر ترجمته مع التعليق عليها قريباً ، وكذلك Encyclopeadia of Religion and Ethics, (Dr. Hastings) art. Divination وقد اشترك فى وضع هذه المادة سبعة عشر عالما ، تناول كل منهم الحديث عن التنبؤ عند الشعب الذى تخصص فى دراسته ، وهذه المصادر تزود من يريد التوسع فى هذا الموضوع ، بكثرة من المراجع .

من أساليب التنبؤ عند الشعوب فى مختلف العصور ، وقد خدعت البعضَ هـــذه الظاهرة ، فقرروا بأن هذا التشابه فى كل حالاته ، مرجعه إلى نقل اللاحق عن السابق وعدوى الثقافات وتزاوج الآراء ، واستندوا فى هذا إلى انتقال الحضارات والثقافات ، من شعوب الشرق فى ماضيه السحيق ، إلى شعوب اليونان والرومان ، وانحدارها عن هؤلاء ، ودرّاث تراثهم إلى العالم الإسلامى ... والرأى عندنا أن هذا التبادل العقلى بين الشرق والغرب ، إذا كان له تأثيره فى وجوه التشابه فى بعض فنون التنبؤ ، فالراجح أن الكثير من وجوهه الأخرى ، مرده إلى وحدة العقل البشرى ، وتشابه استجاباته ـ مع اختلاف الزمان والمكان ـ كلما تشابهت المؤثرات ... بهذا يفسر جمهرة المحدثين من علماء الاجتماع الكثير من مظاهر التشابه فى الحضارات البدائية ، حتى فى بعض الحالات التى ثبت فيها الاتصال بين هذه الشعوب ..!(١)

وقد مكّنت الأديان لهذا الميل الفطرى عند البشر ، لأنها لاتستقيم بغير الإيمان بالغيبيات ، وليس فى هذا مايضير الأديان فى شىء ـ وقد أقر الإسلام نفسه العلم بالغيب ، وردّه إلى علام الغيوب ومن يجتبيه تعالى من رسله وصفوة المؤمنين من عباده ، وعرف العالم الإسلامى صنوفاً من مدركى الغيب ، يتقدمهم الرسل والأنبياء ، ويليهم الأولياء وأهل الكشف الصوفى ونحوهم من المجانين والبهاليل والمرضى والمتوهمين من المريدين ، وأصحاب الرؤيا الصادقة ، وغيرهم ممن لايتوسلون إلى إدراك الغيب

---

(١) إذا كان Elliot Smith قد رفض هذا الرأى الذى أيده Frazer وغيره ، ورد الحضارات إلى اختراع شعب واحد ـ قدماء المصريين ـ عنه أخذتها بقية الشعوب ؛ فقد دحض رأيه ماكس مولر ، وبدا هذا التفسير صحيحاً فى دقائق البحث العلمى ، وليس الاتفاق الفجائى الذى وقع عام ١٨٥٨ بين « ألفرد والاس » A. Wallace و « داروين » Darwin فى وجهة النظر التطورية ، إلا شاهداً على صحة ماقول . وسنعود إلى بيان هذا فى آخر فصل فى هذا الكتاب

صناعة واكتسابا ، وأولئك هم أهل التنبؤ الطبيعى Natural Divination كما كان يسميه شيشرون Cicero وغيره من قدماء مؤرخيه .

وعرف العالم الإسلامى ـ مع هؤلاء ـ صنوفاً من أهل التكهن الصُّنْعى[1] Artficial Divination الذى يقوم على منطق العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، وصدق الحدس وتوثب الفطنة ودقة الملاحظة ووقدة الذكاء ، ونحو هذا مما يجىء أغلبه اكتسابا ـ قد لا يفلح إذا لم تصحبه فِطَرٌ تمكّن من بلوغ غايته ـ وهو يشمل فى الإسلام الكهانة والعرافة والعيافة والنجامة والطِّيَرة والفراسة وما يتصل بهذه الفنون.

والاستناد إلى منهج البحث العلمى ، والاهتمام بقانون العلية عند تحليل هذه الفنون التى استخدمت للكشف عن الغيب المحجب ، يفضى إلى عكس النتيجة التى انعقد عندها رأى جمهرة مفكرى الإسلام ـ فلاسفةً وصوفيةً ورجال شرع..!! وهذه نقطة ستتكشف مقدماتها فى الفصول التالية ، ونعود إلى مناقشتها فى نهاية هذا البحث .

وحسبنا الآن أن نقول إننا حاولنا فى هذا الكتيب ، أن نؤرخ وجهات النظر الإسلامية فى أشهر أساليب التنبؤ ، وأن نتتبع أصولها فى القرآن الكريم والتراث الإسلامى إجمالا ، وتأدّى بنا هذا إلى الإشارة إلى مايشبه هذه الآراء ، فى تراث القدامى من الغربيين والشرقيين على السواء[2]، وإن اضطرنا ضيق المقام فى كل حال ،

---

(١) الصنعى لفظ أطلقه مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، على ما يقابل عند الفرنجه Artficial (fr:ielle)

(٢) كان أكبر اعتمادنا فى ذلك على كتاب شيشرون السالف الذكر ، وتعليقات طبعة « جارنييه » Garnier الفرنسية و « لويب » Loeb الإنجليزية ، ويليه « بوشيه لوكليرك » ولم نجد مايبرر التوسع فى ذلك لضيق المقام .

إلى الإيجاز حتى فيما يتطلب الإسهاب . فحسبنا أن نشير فى أذهان القراء هذه الوجوه من النظر العقلى ، كما تضمنها تراثنا الإسلامى ، عسى أن تكون إثارتها مزاجا من اللذة العقلية والمنفعة المشتركة .

ولعل من المناسب أن نشير — قبل أن ننتهى من هذه المقدمة — إلى أن هذا الموضوع — فيما نعلم — بِكْرٌ لم يطرقه أحد الباحثين من قبل ولا سيما ما اتصل منه بأساليب التكهن الصنعى — إذا استثنينا ما عرفته بعض فنونه فى العربية قديما ، من مصنفات أو مقالات قصار ، قلّ منها ما يدخل — من باب التجوز — فى نطاق البحث العلمى .

وبعد ، فليس يسعنى فى ختام هذه الكلمة ، إلا أن أحيى الجمعية الفلسفية المصرية ، ممثلة فى رئيسها الأستاذ الدكتور على عبد الواحد ، شاكراً له ملاحظاته الطيبة على بعض نواحى هذا البحث ...

الإسكندرية فى { شوال ١٣٦٤ هـ / سبتمبر ١٩٤٥ م

توفيق الطويل